هو.. و" الإمارة ":

– وحيد من الخلانِ في كـلّ بلـدةٍ – ..إذا عظـم المطلـوب قـلّ المُسـاعد

نقول/ ..ربما خانه ذكاؤه – الجاف – لعدم استخدامه له.

فـ (لو[1]).. مثلاً نسي علويته[2] "النسب لعلي رضي الله عنه"..

أو: لآن[3] لمن حول "بدر بن عمار"..،

أو تنازل عن بعض الشموخ – الذي لم يكن لمعظمه داعٍ – والغرور عنـد سيف الدولة، ليكسب –..على الأقل – نُدبائه..

أو مثّل على كافور – وهو قـادر علـى ذلـك – أبـين تمثيـل،.. لربمـا نـال مطلبه، وبلغ أربه، لكن كما قال هو:

---

[1] –..مع التذكير/ بأن "لو" تفتح عمـل الشيطان! كما في الحديث الـذي رواه مسلم (رحمه الله) في صحيحه –

[2] وعلى هذا عبّر عن الصول.. لذلك بـ:

سـأطلب حقـي بالقنـا ومشـايخ لطـول مـا التثمـوا كـأنهم مُـردُ

[3] اللين سلاحٌ قليل من يدرك مدى مفعوله، كما في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله رفيق يحب الرفق) رواه البخاري،.. وقد قال الراجز:

بُـنيّ إن الـبرّ شـيء هـين وجـهٌ طليـق وكـلام لـين

والمثل الهندي (السيف يقتل مرة، واللطف يقتل مئة مرة).

بل إن شاعرنا يدرك هذه المعاني..، بقوله لأميره الحمداني:

ترفـق أيهـا المـولى عليهـم إن الـرفق بالجـاني عتـابُ

أو قوله:

ومـا قتـل الأحـرار.. كـالعفو عنهـمُ..، إلخ..

وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلّف شيء في طباعك ضده

لهذا لم يقل من فراغ - أو للنظم.. فقط - :

وفؤادي من الملوك ، وإن كا ن ، لساني يُرى من الشعراء[1]

بل كان يعي ما يقصد.. ويلمّ بما يرمي له، عند إذ قال كافور - بعد فهم وإدراكٍ لمرمى هذا البيت في نفس المتنبي-:

(من يدّعي النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم.. ألا يدّعي الملك بعد كافور .. فحسبكم).[2]

و"المتنبي" استخدم ذكاءه بكل حاجة.. سوى أعزّ المنى[3] "الإمارة".

فـ.. هل يضيره أن يلقى بلسان معسول ووجه بشرٍ مبذول -على الأقل- ليصل إلى الهدف؟!، أما قال "مُخاطباً ذاته":

تُريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشّهد من إبر النحل

فلا يجب أن يستنكف[4].. ليبلغ المأرب، وينال المطلب..، ويحظى بما يرغب..

---

[1].. وأخذ نزار قباني.. باطن هذه النفحة بقوله:

لا يبوس اليدين شعري.. وأحرى بالسلاطين أن يبوسوا يديه

[2] على ما في هذه الرواية من ضعف - لأن سندها بالنبوة ضعيف (انظر ما تقدم ص٢٤ هامش١) - ، إلا أن ذكرها ميلاً على ما وُصم به "الشاعر".

[3] يقول "كنجلي": بعض الرجال لديهم جميع المواهب، .. ما عدا موهبة استعمالها.. والانتفاع بها - أي تلكم المواهب! -

[4] .. أو يتكبّر.

أبا المسك[1]..هل في الكأس فضلٌ أناله فإني أُغنّي منـذُ حـين.. وتشـربُ

إذا لم تُنـطْ بـي ضيعـة أو (ولايـة) ..فجودك يكسوني، وشغلك يسـلبُ

ألم يستّطع صبراً على (إبر النحل) - كما مثّلها - للوصول.. إلى المعالي[2].؟

..لنعد "تفسيراً" لنفسه التي لم يُحمّلها -حتـى- وخـز إبـر النحـل ليبلـغ مناه، الذي صال وجال - وأنشأ الأمثال -.. عسى أن يتقلّده:

أولاً:

المتنبي يجيز لنا أن نقول - ومما تقدم - "بالتعبير الشائع" أنه مُعقّد[3]..، كيف؟

.. بقراءة أي كتاب عنـه - ..بـل مـن معظـم الشـكوى في شـعره[4] - يلمس القارئ بوادر ذلك!

فهو إنسان مُتعالٍ يبحث عن المعالي - الإمارة - بلا مُصانعة.. كمـا قـال زهير - في حِكمه- :

ومـن لم يُصـانع[5] في أمـورٍ كثـيرة يُضـرّس بأنيـاب ويُوطـأ بمنسـمِ[6]

---

(١) يعني "كافور".

(٢) قال "قوقارس" مُعرّفاً: (الصبر.. هو فن التشبث بالآمال).

(٣) ..اعترض بإدب.. الأديب عبد الله خياط - عكـاظ عـدد ١١٨٤٢ - علـى وصفـي: "عقده" - في (الطبعة الأولى)-، وأسماها طموحاً.. ثم استشهد بقول (ابن ميادة):

منـى إن تكـن.. تكـن أحسـن المنـى وإلا فقـد عشـنا بهـا زمانـاً رغـدا

(٤) - ألم يملأنا، ويؤلمنا.. بـ قوله:

ألا ليـت شـعري، هـل أقـول قصيـدة فـلا أشـتكي فيهـا.. ولا أتعتـبُ؟!

(٥) أي: يداري.

-...

..حتى إنه أحياناً يهدم بعض ما يبني[1] - وبالتأكيد دون أن يدري-..[2] فمثلاً عند "كافور".. يمدحه باللفظ ويهجوه بالمعنى[3]، وهذا إدراكاً متشبّع من قوله:[4]

-...

[6] فما البال.. وهو يطلب الإمارة..، ألا من الأحرى كل المصانعة.. هنا.

فـ كما قال أحمد شوقي: (**وما نيل المطالب بالتمنّي**)!!

[1] فهو - كأقرب وصف لحاله -: كالمُنبتّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى (..كما جاء في الحديث).

[2] وليس استخفافاً بذكائه، أو تقليلاً من دهائه..، بل ربما يغلبه اعتزازه بذاته، أو يطغى عليه كبريائه..، ونفحات افتخاره..التي لا تفارقه-انظر ما تقدم (ص٧٠) وما بعدها-

[3] لذلك يقول ابن جني - من رواة شعره -:

قلت للمتنبي ما زدت إن جعلت كافور الإخشيدي أبا زنة (وأبو زنة كنية القرد) فضحك المتنبي و لم يقل شيئاً، أي أنه وافقه!!

وقد قال التوحيدي وابن جني وابن الخطيب من أن المتنبي يهجو كافور في قصائده التي يضمها مدحاً..، من ذلك:

وما طربي لما رأيتك بدعة ... لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

-..والملوك لا يمدحون بأن الإنسان إذا لقيهم طرب..، لكن بالهيبة والتقدير.! -

وانظر في القصيدة الأولى قوله: - تجد/ يمدحه باللفظ ويهجوه بالمعنى! -:

قضى الله يا كافور أول ... وليس بقاضٍ من أن يرى لك ثانِ

[4] من قصيدة يذكر بها خروج (شبيب) ومخالفته كافوراً:

عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من أعدائك القمران

- قال العكبري في شرح هذا البيت: القمران: الشمس والقمر، تغليباً لأحدهما على -...

وقد يتقارب الوصفان جداً وموصوفاهما متباعدان

رغم علمه بدهاء كافور، وإدراكه لذاك الهجاء[1] - أو لنقل السلح[2] - ثم يتمنى منه الولاية..

وفي النفس حاجات وفيك فطانةٌ سكوتي بيان عندها.. وخطاب

و لم يقف عند هذا..[3]، بل حينما قدِم أبو شجاع استأذن من كافور

الآخر، كقولهم: العمران، أبو بكر، وعمر بن الخطاب. والمعنى: قال الواحدي، يقول: من عاداك دل على جهالته، وسقطت منزلته عند الناس، وعاداه كل أحد وذمه، ولو كان من أعدائك القمران، لصارا مذمومين مع عموم نفعهما -

[1] كقوله في قصيدة "الحمى" - وهو في.. كنفه -

ولما صار ود الناس خباً جزيت على ابتسامٍ.. بابتسام
وصرت أشك في من أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

وبسط مراد البيت الأول..، قول ابن رشيق:

رُبّ تقضيبٍ من غير بغض وبغضٍ كامن تحت ابتسام

[2] ..ألم يعترف بذلك - فيما بعد - بقوله.. **وشعراً قد مدحت به "الكركدن"** ..إلخ

وقد فسر البحتري - من قبل - هذا المنحا:

ولم أحابك(*) في مدحٍ تكذّبه بالفعل منك، وبعض المدح من كذبِ

(*) أي: أسايرك.

[3] ولعل الأدهى من كل ذلك، رمي الشاعر - في أول لقاء مع كافور - بهذين البيتين(*).. حزناً ولوعة وحرقة على فراق الأمير الحمداني - دون وزن.. لمقام هذا "الحاكم":

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا.. أو عدواً مداجيا

بمدحه[1] وهذه سقطة من الشاعر[2].

وعودة إلى قصة مدح أبي شجاع (فاتك المجنون)،[3] يُستنتج منها عدم رضا كافور منه.. ولا يُعذر أبو الطيب لأنه يأس من نيل المطلب، فهذا

-... - [*] وما يذكّر به البيتان إلا بقوله تعالى - على لسان أهل النار -: ﴿يا مالك ليقضي علينا ربك.. الآية﴾ أي يتمنوا من شدة العذاب "الموت".. وما هم ببالغيه - وإن كان - اعتذاره الخفي - ما أجاده في ختام القصيدة (السالفة):

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب ... يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

وهذا - أدبياً - يُعتبر قلّة أدب في التعامل مع "لكل مقام مقال"

- ولهذا.. فقد زجر عبد الملك بن مروان شاعره "جرير" - مع أنه كان يُخاطب نفسه - حين قال:

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاح

إلا أن أبا الطيب عاد.. - بعد - ليُنشئ..

فراق ومن فارقت غير مذمم ... وأمّ.. ومن يممت خير ميمم

[1] مطلع القصيدة:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

-.. ويذكّر هذا الإنشاء بقول سليمان ذي الدمنة:

ومن لا يؤاتيه على الجود وُجْدُه ... فإن (جميل القول) إحدى المحامد

بذلك أوصاني أبي عن جدوده ... وأوصوا بذاكم عن بكيل وحاشدِ -

[2] - فإدراك المقصد/ أن يستأذن، يُفهم المراد من قول: "سقطة"[*] -

[*] ..بالطبع/ إذا صحّ ما ذهبنا إليه.

[3] وفاتك - هذا - رومياً أُسر في فلسطين، وأخذه "كافور" من سيده بـ "الرملة".. وقرّبه إليه، وجعله في بطانته ثم خافه لما رأى من شجاعته، وكرمه، وإقبال الناس عليه..

-...

إن كان حقيقياً في نفسه..، لا يجيز له مدح من لا يريد كافور أن يمدحه..

فالأصل أو لنقل: لو أن أبا الطيب استخدم فطنته فمدح أبا شجاع ضمن سياق يكون مبنياً بمدح كافور - لأنه شاعره - على الأقل أمام الجمع.. ليحظى بتقدير الأمير لشخصه، ويسوغ عندها الطلب..، فإذا كان كافور - كما قال المتنبي - أدراك الملك، بـ (أيامٍ يُشبن النواصيا[1])، فكيف وشاعرنا مثله لم يرث شيئاً!، يستكثر.." الصبر" فقط[2].. دون المأرب[3].

-...

قال شاعرنا - يرثيه -:

أين منبته من بعد منبته "أبي شجاع" قريع العُرب والعجم
.. لا فاتك آخر في مصر نقصده ولا له خلفٌ في الناس كلهم

- ولما لا..!، ألم يقل .. فيه:

تملّك الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ -

[1] وليس كما قال الآخر:

ما زال يسبق.. حتى قال حاسده: له طريق إلى العلياء مختصر

أي أن الحساد يريدون طمس هذا السبق ونسبته إلى سهولة أو يسر الطريق،.. لا إلى سالك الطريق.

[2] ..فهل غاب عنه قول أمية بن أبي الصلت:

اصبر النفس عند كل ملم إن في الصبر حيلة المحتال

[3] أين قوله - مخاطباً مهجته -:

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ثانياً:

الغرور – العظمة – الكبرياء..[1]

– أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيشٍ مُعجّل التنكيد –

النفس الأبية.. التي كأنها من سلالة إمبراطورية ينتظر دوره.. بولايتها..

أما غرور المتنبي فهذا لا يُختلف عليه كثيراً، إذ هو بادٍ: من قول أبي فَراس الحمداني[2] له.."ومن أنت يا دعيُّ كِنده" –كمثال حيٍّ وكافٍ على غروره– [3]

..أما (الكبرياء) فيكفي "شاهداً" بيته البارز كبرياءً:

أبدو.. فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أُعاتبه صفحاً وإهوانا

فهو لم يقف على "الصفح" الذي من شيم المحسنين[4]، بل بدأها بسجود "المعتذر" ثم يتبع صفحه استهانة بمقام ذلك المعتذر..، وإهواناً له..

---

[1] وقد توعّد رسولنا صلى الله عليه وسلم "العائل المستكبر" –العائل: الفقير– بـ وعيدٍ شديد. حيث قال:

(ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملكٌ كذّاب، وعائل مستكبر). رواه مسلم.. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] ..مع أنه داع قول (أبي فراس) هو من باب/ المنافسة – أو تماثل المهنة – انظر ما تقدم هامش (١) ص٨٣ –..وذلك جواباً على قوله:

(أنا) الذي نظر الأعمى إلى أدبي.. إلخ –

[3] راجع ميميته الشهيرة "عتابه لسيف الدولة".

[4] قال إمامهم حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم – من حديث (أوصاني ربي) –:

(...وأن أعفو عمن ظلمني،إلخ).

ثم يُقيّم (ذاته)[1].. مِمَن ذمّه.. بالنقص:

وإذا أتتك مذمتي من (ناقصٍ) فهي الشهادة لي بأني كاملُ

وبعد كل هذا يؤطّر هذه "القاعدة":

خليلك أنت.. لا من قلت خلّي وإن كثر التجمل.. والكلاما

وأما عظمته.. فمن تمجيده لذاته[2] يتّضحُ تعاظمه.. كقوله:

تغرّب لا مُستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

و.. النفس "الأبية":

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي

و...:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش رُبّ عيشٍ أخفُّ منه الحمام

و...:

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمى

ثالثاً:

لا يستقر على حال أو على مبدأ يصول من أجله أو يسعى لنيله.

- أو على قاعدة:

أتمنى أنني لا أتمنى فلقد بت بآمالي مُعنّى -

---

[1] ..قالت العرب: ثلاث مهلكات: شحّ مُطاع، وهوى مُتبع، وإعجاب المرء بنفسه.

[2] .../

أسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمرٍ مُنير

فساعة يدّعي العلوية..[1] ويُطالب بها - حتى نُفّر من دخول الكوفة[2]

- ما كنت أوّل من جنّب ركائبه شوقاً.. وفارق إلفاً غير مختار -

وساعة يُطالب عودة الملك "للعرب"، ليستعيدوا عزّتهم،.. وأُخرى يُطالب بولاية أو إمارة.[3]

رابعاً:

الحزن..البكاء[4].. الحرقة.. كلها بمعنى واحد، وذات دلائل متوحّدة في ذاته[5]..

---

[1] النسب لعلي رضي الله عنه.

[2] راجع أسباب منعه دخول الكوفة حين رغبت حدته رؤيته، ولعل رثاءه لجدته مضمور به شيء من ذلك، بل .. وقال عمّا أصابه بسبب ذلك:

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

وأيضاً:

سأطلب حقي (*) بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مُرد

(*) وهذا الحق: هو "انتسابه للعلوية" - كما أسلفت..أعلاه -

..ونسمع ترنيمه - بعد تجاربٍ أخذت منه ما أخذت ! - مُعترفاً..

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي: المجد للسيف،.. ليس المجد للقلمِ

[3] أقل.. القليل بنظره لهذا المطلب "الأخير". كقوله لكافور:

وفؤادي من الملوك وإن كا ن ، لساني يُرى من الشعراء

[4] - وكأن أبو فراس.. يعبّر عن كامنه حين قال:

إذا الليل أضواني.. بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكِبْرُ -

وقال أبو سلمى - ..كأنما يعنيه -:

كيف تبكي، وهل هناك دموعُ ذهب الصحب والهوى.. والربيعُ

[5] كقوله.. مُخاطباً (عهده):

-...

وعندي دموع لو بكيت ببعضها لفاضت بحور بعدهُنّ بحور[1]

.. ولذا / رمى هذا البيت:

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا[2]

ولو أردنا .. أن نستلهم له مبرر - عن هذه المُعاناة - لأخذنا قول محمود سامي البارودي - في محنة نفيه - مُعبّراً:

عناءٌ ويأس، واشتياقٌ وغربةٌ ..ألا شدّ ما ألقاه في الدهر من غبنِ

(وقفة):

-..ومن وراء.. ماسبق- تحكم بحياة شاعرنا شيئان مهمان:

١/ ثورة داخلية في نفسه تدفعه إلى نقد كل شيء[3] - بدون مبالغة - بنظره ومقياسه "لهذا الشيء المنقود".

-...

عدُوّي كلّ شيء منك حتى لخلت الأكم موغرة الصدور

(1) أبو بكر الشبلي.

(2) ..وتجده من بعد.. يُنشئ:

وقِلّةِ ناصرٍ جُوزيت عنّي بشرٍّ منك يا شرّ الدُهور

- أوضح "العكبري" بأنه دعا على دهره، وهو زمنه الذي لم يجد فيه من الناس من يعنيه ويساعده على ما يريد، بأن يبتلى دهره هذا بدهر أخس منه وأشر.

لكن نبين: أن سب الدهر مذموم كما سيأتي -هامش ٢ ص١٣٠-،..إنما العذر الذي نجده/ ربما يقصد ظروفه، وتقلّب أحواله...إلخ.

- حتى قال..: [1]

قُبحاً لـك يـا زمـان[2] فـإن لـك مـن كـل وجـه قبيـح برقـع..-

٢ / حقده.. من ماذا: ربما من حاله ووضعه، أو من تسبب به!!

..ولو بالغنا لاستعرنا له قول المعري:

هـذا مـا جنـاه علـيّ أبـي، ومـا جنيـت علـى أحـد

فهاهو ذا يزفر.. بمبالغة -كعادته-:

مـن خـصّ بـالذمّ الفـراق.. فإننـي من لا يرى في الدهر شيئاً يُحمد[3]

---

[3] ألم يقل - كأنه يُثبت -:

تخـالف النـاس حتـى لا اتفـاق لهـم إلا على شـجب، والخلـف في الشـجب[*]

فقيـل: تخلـص نفـس المـرء سـالمة، وقيـل: تشـرك جسـم المـرء في العطـبِ

[*] الشجب: الهلاك -

وهذا من الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة - كما قال الثعالبي - "اليتيمة" ١/١٧٢-..، وانظر (ص٧١) أمراء الشعر العباسي لـ (أنيس المقدسي).

[1] من قصيدة في رثاء "فاتك المجنون".

[2] ويعلم المسلم أن ذمّ الزمان منهيٌّ عنه!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى: يسُب بنو آدم الدَهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار) الحديث - رواه البخاري.

[3] ومعنى البيت فسّره أحمد شوقي.. بقوله:

يـا نفـسُ دُنيـاكِ تُخفـي كـلَّ مبكيـةٍ وإن بـدا لـكِ منهـا حُسـنُ مبسـمِ